الملفُّ الخامس

سِلْم الإنجاب

اختصرت الشعوب العربية رحلة الحياة الزَّوجية السَّعيدة في شهر واحد في العمر كله يسمىٰ بـ (شهر العسل)، بعده ترحل السَّعادة بكافَّة ألوانها وأشكالها وتسكن الآلام والأحزان والهموم القلوب، وكلما مرَّ عام من الأعوام احتفل به الزَّوجان علىٰ سبيل الذِّكرىٰ وكأنه بداية عام جديد، اعتقاد فاسد زرعه الواقع في بيئة خصبة أنتجت هذا الوهم الذي سيطر علىٰ حياة الكثير فأثمر ضعف العلاقة بالله ﷻ وعدم الثِّقة بالنَّفس، وبعد مرور هذا الشِّهر السعيد غالبًا تبدأ رحلة من التوتُّر العصبي والانفعال المرضي بحثًا عن الإنجاب، ويظل هو الشغل الشاغل -ليل نهار صباح مساء-، وتزداد الحياة سوءًا والحالة بؤسًا إن لم تتحقَّق هذه الأمنية فيتحوَّل العسل إلىٰ ألم وشقاء.

فإن تحقَّقت الأمنية فمع أول مولود -ذكرًا كان أو أنثىٰ- تبدأ رحلة السَّعادة الوقتية مع الأسرة وكأنَّ الدُّنيا وهبتهم نعمة الحياة، وبعد فترة زمنية ينتظرون مولودًا آخر، فإن جاء من جنس المولود الأول رفضت عقولهم وقلوبهم وإن بدا علىٰ وجوههم خلاف ذلك من إظهار نعمة التَّسليم والإذعان، ثم يظلُّون علىٰ هذا الحال إلىٰ أن يتغيَّر جنس المولود، بعده يصدرون الأمر بالتوقُّف عن طريق الوسائل المعروفة، فالأمر عندهم ليس من باب مضاعفة عدد المسلمين تنفيذًا لتعاليم دينهم الحنيف ولكن من باب الجمع بين الذَّكر والأنثىٰ في بيت واحد كما صوَّره الواقع لهم، فهذا هو مفهوم السَّعادة عندهم باختصار.

ومع ذلك فالأمر هيِّن إذا ما قيس بعقم الرِّجال أو النِّساء، حيث تقوم الدُّنيا ولا تقعد، فإن لم تسمع عبارات الإهانة والاستهزاء والاستنكار فسترىٰ لمزًا وغمزًا من هنا وهناك يحول الحياة إلىٰ جحيم، والأحلام الوردية إلىٰ سراب وكأن أمر المنح والمنع بيد البشر وليس بيد الخالق العظيم ﷻ.

لاشك أن البنين من زينة الحياة الدنيا ومن أفضل ما تراه الأبصار وتشعر بالحنين إليه القلوب، ولكن حصر السَّعادة والشَّقاء في الإنجاب وعدمه، أو في الانفراد بإنجاب الذُّكور أوالإناث أو في الجمع بينهما مسألة في حاجة إلىٰ إعادة نظر، فللسَّعادة أبواب كثيرة أهمها ضبط المشاعر والأحاسيس وتوجيهها إلىٰ الرِّضا برزق الله ﷻ في سِلمية وسلام، والتَّسليم بقضائه وقدره، فكم طوىٰ الزَّمان ذكرىٰ أناس بوجوه باسرة وقلوب غادرة قذفوا بآبائهم وأمهاتهم في دور المسنِّين، وربما إلىٰ الشَّوارع بلا شفقة ولا رحمة فكان لسان حالهم تمنِّي زوال هذه النعمة وإن كانت قلوبهم تنطق بالهداية لهم، وماذا لو علمت أيها الزَّوج أنك في كل حال من هذه الحالات تشبه نبيًّا من أنبياء الله ﷻ؟.

قال الله عز وجل: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ **[الشورىٰ: 49، 50].**

في هذه الآية الكريمة «يخبر تعالىٰ أنه خالق السَّماوات والأرض ومالكهما والمتصرف فيهما، وأنَّه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وأنه يعطي من يشاء ويمنع من يشاء، ولا مانع لما أعطىٰ ولا معطي لما منع، وأنَّه يخلق ما يشاء ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا﴾ أي يرزقه البنات فقط.

قال البغوي[1]: ومنهم لوط عليه الصلاة والسلام ﴿وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ﴾ أي يرزقه البنين فقط، قال البغوي: كإبراهيم -الخليل عليه الصَّلاة والسَّلام- لم يولد له أنثىٰ ﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا﴾ أي يعطي لمن يشاء من النَّاس الزَّوجين

(1) الحسين بن مسعود بن محمد العلامة أبو محمد البغوي، الفقيه الشافعي، يعرف بابن الفراء، ويلقب بمحيي السنة وركن الدين، كان إمامًا في التفسير والحديث والفقه، وله من التصانيف معالم التنزيل في التفسير وهو التفسير المشهور بتفسير البغوي وشرح السنة والمصابيح والجمع بين الصحيحين والتهذيب في الفقه. وكانت وفاته في شهر شوال سنة ست عشرة وخمسمائة وقد جاوز الثمانين. طبقات المفسرين. أحمد بن محمد الأدنروي. تحقيق. سليمان بن صالح الخزي ص158: 160 - مكتبة العلوم والحكم - المدينة المنورة - الطبعة الأولىٰ 1997م.

الذَّكر والأنثىٰ أي هذا وهذا، قال البغوي: كمحمد ﷺ ﴿وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا﴾ أي لا يولد له.

قال البغوي: كيحيىٰ وعيسىٰ عليهما السلام، فجعل الناس أربعة أقسام:

منهم من يعطيه البنات،

ومنهم من يعطيه البنين،

ومنهم من يعطيه من النَّوعين ذكورًا وإناثًا،

ومنهم من يمنعه هذا وهذا فيجعله عقيمًا لا نسل له ولا ولد له .﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌ﴾ أي بمن يستحق كل قسم من هذه الأقسام ﴿قَدِيرٌ﴾ أي علىٰ من يشاء من تفاوت النَّاس في ذلك»[1].

فالواقع قد يستجيب لدعوات هدَّامة وأفكار زائفة خدَّاعة ويروِّج لها، والعقل الحديث تتم برمجته علىٰ القبول دون تمييز بين الجيد والرديء والصَّحيح والسَّقيم، وهذا هو الفرق الكبير بين عالم الإيمان والذي يدعو بسلمية إلىٰ الرِّضا والتَّسليم بقضاء الله وقدره، والواقع الذي يخرِّب العقول وينحط بالتفكير ويدعو إلىٰ اليأس والجزع والقنوط، فأعد ترتيب الأوراق وتصفحها بقلب آمن مطمئن بعيد عن الهوىٰ، ثم ناقشها بحيادية تامَّة بعيدًا عن التعصُّب أو التحزُّب حتىٰ يعود الحقُّ إلىٰ نصابه ويرحل الباطل إلىٰ حال سبيله، فإذا أنعم الله عليك بنعمة إنجاب الإناث فقط أو الذكور فقط فهذه هبة منه فاقبل هبته وعطيته، وكذلك لو جمع لك بين الذُّكور والإناث، وإن كنتَ أو كنتِ عقيمًا فهذا جعل الله لكَ أو لكِ فله الحمد والشكر، فالسِّلم الإيماني شيء، وما يفرضه الواقع من حرب شيء آخر.

---

(1) تفسير القرآن العظيم 4/ 152.

وينظر: تيسير الكريم الرحمن ص897. وهذا علىٰ وجه التمثيل، والآية عامة في كافَّة الناس. معالم التنزيل (تفسير البغوي). حققه. محمد عبد الله النمر وآخرون7/ 69 - دار طيبة للنشر والتوزيع - الطبعة الرابعة 1417هـ-1997م.